بسم الله الرحمن الرحيم
الجزء السادس عشر
سورة الكهف
من الآية ٧٥ حتى نهايتها الآية ١١٠
وسورة مريم
وسورة طه

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا (٧٦) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) ﴾

قال الخضر لموسى (ﷺ): ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ قال موسى متراجعًا واعدًا بأنه لن يسأله من بعد، وإن فعل فقد أخلف الشرط إلى الدرجة التي ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾ لك العذر في أن ترفض صحبتي ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ طلبا من أهلها طعامًا ﴿ فَأَبَوْا ﴾ فرفضوا ضيافتهما، فرأيا حائطًا يوشك على الانهيار، فراح الخضر يعيد إصلاحه حتى أقامه، فتعجب موسى قائلًا: ﴿ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ وهنا قال له الخضر: ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ سأخبرك أسباب ما فعلته، ولم تقو على الصبر عليه.

* * *

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٨٢) ﴾

كانت السفينة ملك مساكين يعيشون منها، وكان هناك ملك غاصب يستولي على السفن، فأردت أن ألحق بها عيبًا فيزهد فيها الملك ويتركها ﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ ﴾ فكانا أبواه مؤمنين، والله يعلم أنه إن عاش وشبّ لأزعجهما بالطغيان والكفر؛ فأماته الله ليبدلهما من هو خير منه وأكثر رحمة وبرًا بهما ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ ﴾ فكان ميراثًا ﴿ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ ﴾ يسكنان تلك المدينة ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾ بإقامتي الجدار الحفاظ على الكنز للغلامين حتى يكبرا ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ باليتيمين وإكرامًا للأبوين المؤمنين ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ كل ما فعلته هو بأمر الله، وهذه هي شروح عواقب ما لم تصبر على معرفته.

* * *

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ﴾

تعددت الروايات فيمن سأل النبى (ﷺ) عن ذى القرنين، وعمن هو ذو القرنين، ولكن ليس فيها ما يُقطع بصحته، إلا أنه ليس الإسكندر الأكبر (المقدونى)، فهو طبقًا لروايات التاريخ مغامر مستبد، أسال بحورًا من الدماء لإرضاء غروره ونزواته المتنوعة، مهما حاول البعض إلباسه ثوب العظمة والعبقرية. تحدثنا الآيات التالية بعضًا من قصة ذى القرنين، وتبدأ بأن الله مكَّنَ له فى الأرض، وآتاه من كل أمر «سببًا» وأصل السبب فى اللغة الحبل، فصار استعماله لكل ما يُتوصل به لأمر، وقد يعنى هنا علمًا، أو قدرة، أو سلطانًا وحجة، أو كل ذلك.

سار ذو القرنين غربًا حتى بلغ موقعًا من الأرض يرى فيه الشمس تغرب فى عين ذات طين أسود ـ كما نرى الشمس تغرب فى البحر أو فى الصحراء ـ ووجد فى ذلك الموقع قومًا أمره الله أن يعذب الظالمين منهم، ويحسن للصالحين، فامتثل لأمر الله. ثم سار شرقًا حتى بلغ موضعًا ليس فيه ساتر من الشمس. وتعددت أقوال المفسرين فى ذلك: أحدها: ليس فيه جبال ولا تلال ولا شجر، وثانيها: لا يقوم فيه بنيان، وثالثها: الناس عراة. وقد يكون القول الأول هو الأرجح، والله أعلم، ولم تبين الآية صنيعه معهم، وقد يكون مماثلاً لما صنعه مع الأولين، والله أعلم بما فعل.

***

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) ﴾

ثم سار ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ قال أكثر المفسرين: إن المقصود بين الجبلين، وليس هناك ما يمنع أن يكون المقصود سدين، وهناك وجد قومًا صعاب الفهم، ويبدو أنهم كانوا

قليلى الحيلة والقوة، ولما رأوا قوته وصلاحه شكوا له حالهم وأن يأجوج ومأجوج يعتدون عليهم ويفسدون بينهم، وطلبوا منه أن يساعدهم على بناء سد يحميهم منهم، وعرضوا عليه ﴿ خَرْجًا ﴾ أى مالاً مقابل هذا العمل.

* * *

﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِى زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِى أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا (٩٨) ﴾

فرد عليهم ذو القرنين ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى ﴾ ما بسطه الله لى من القدرة ﴿ خَيْرٌ ﴾ من خرجكم ﴿ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ وهكذا اعتذر ذو القرنين بطريقة كريمة تليق بمن مكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ له فى الأرض وآتاه من كل شىء سببًا، كما بعث فيهم النخوة والعزة حتى لا يستهينوا بأنفسهم ويشاركوا فى العمل ﴿ آتُونِى زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾ القطع العظيمة الضخمة من الحديد ﴿ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ ﴾ جانبى الجبلين المتقابلين ﴿ قَالَ انفُخُوا ﴾ انفخوا فى النار حتى يزداد اشتعالها، فيحمر الحديد ويصبح كالنار، ثم قال: ﴿ آتُونِى أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ أصب على الحديد الذى انصهر نحاسًا مذابًا، وعندما يبرد يصبح شديد الصلابة ﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ فلم يستطع يأجوج ومأجوج الصعود عليه لشدة ارتفاعه ﴿ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ ولم يستطيعوا أن يثقبوه ليمروا من خلاله. قال ذو القرنين ـ بعد أن تم العمل ـ شكرًا لله: ﴿ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ﴾ رحمة لهؤلاء القوم الضعاف، ثم أعقب قائلاً: إن هذا السد المنيع قائم إلى حين ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّى ﴾ بتهدم السد، سواء كان ذلك بفعل الزمن، أو بسبب عصيان القوم أو غير ذلك، أو بفناء الدنيا ﴿ جَعَلَهُ دَكَّاءَ ﴾ دكه الله وهدمه؛ لأن وعد الله حقّ لا ريب فيه.

تنتهى بذلك قصة ذى القرنين فى القرآن، وهى تبين نموذجًا طيبًا للحاكم الصالح، الذى مكن الله له فى الأرض، فسار فيها شرقًا وغربًا، وغير ذلك، يحسن للصالحين، ويعاقب الظالمين، وينهض بالضعفاء ليصدوا عدوان الفاسدين المستكبرين، ويذكر الله وينشد رحمته ويحذر من عذابه. والاعتبار بذلك أجدى وأنفع من الخوض فى مسائل غيبية من قبيل: من هو ذو القرنين؟ أين سار؟ ومن هم يأجوج ومأجوج؟.

* * *

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (١٠٢) ﴾

قال سيد قطب: [. . مشهد يرسم حركة الجموع البشرية من كل لون وجنس وأرض، كل جيل وزمان وعصر. . . يختلطون ويضطربون فى غير نظام وفى غير انتباه، تتدافع جموعهم وتختلط اختلاط الموج. . . ثم إذًا نفخة التجمع والنظام ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا(٩٩) ﴾ فإذا هم فى الصف فى نظام!]. وكلمة ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ تناسب يوم دك السد، وتناسب العدوان على التكليف الإلهى الذى يدك الحقوق ويجعل الناس تضطرب فى حياتها، وتناسب نفخ الصور، أى البوق، علامة على البعث للحساب ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) ﴾ أى أظهرناها وأبرزناها لأولئك الذين أبطلوا عمل كل ما حباهم الله به فى الدنيا ليسلكوا سبيل الحق، من ضمائر لبصائر لأسماع لغير ذلك من المدارك ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ﴾ أفتاهت عقول الكافرين حين اتخذوا من عباد الله آلهة تُعْبَدُ، وكلمة عباد الله هنا تشمل الملائكة، والبشر الذين رفعهم بعضهم لمصاف الآلهة، سواء كانوا أنبياء أو رجال دين أو حكامًا، أو غيرهم ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴾.

***

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (١٠٦) ﴾

قل لهم يا محمد هل أخبركم بأكثر الناس خسرانًا: إنهم أولئك الذين ضل عملهم وزينوا لأنفسهم حسنَ ما يصنعون، أولئك هم الذين جحدوا آيات الله، وجحدوا لقاءه ووقوفهم أمامه يوم الحساب، يوم يضع الله الموازين الحق التى تهدر أعمالهم فى الدنيا، ويحصدون جهنم فى الآخرة جزاء لكفرهم واستهزائهم بآيات الله وبرسله.

***

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً (١٠٨) قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً (١٠٩) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (١١٠) ﴾

وفي مقابل الأخسرين أعمالاً، تنتظر جنات الفردوس الذين آمنوا وعملوا الصالحات، لا يتمنون منازل غيرها ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي ﴾ قل يا محمد: لو أن ماء البحر كان مداداً لكلمات الله التي تقوم بها الأكوان وما فيها بقوله ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ لنفد مداد البحر ولم تنته كلمات ربي ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ قل لهم يا محمد ما أنا إلا بشر مثلكم، يوحى الله إليّ بما أقول وما أفعل، والأساس، والأول والآخر في كل ذلك: إن إلهكم إله واحد، فمن طلب وتمنى لقاء الله، فليحرص على العمل الصالح ﴿ وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كهيعص (١) ﴾ ارجع لشرح الحروف المُقَطَّعة فى أول سورة البقرة.

* * *

﴿ ذكْرُ رَحْمَت رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦) ﴾

تذكر هذه الآيات رحمة ربك لعبده زكريا (عليه السلام)، فقد دعا ربه فى الخفاء ﴿ ... إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ... ﴾، إنى بلغت عمراً طويلاً، ضعفت عظامى وابيض شعر رأسى ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ وبفضل دعائك يارب العالمين لم أكن شقيّا، وقد جاء فى الحديث «الدعاء هو العبادة» رواه الترمذى، ولست آمن على رسالتى من يأخذ مكانى من بعدى، وكانت امرأتى لا تنجب، فامنحنى من عندك ياوهاب من يلى رسالتى، ويرث ما أنا عليه وما كان عليه آل يعقوب، واجعله مرضيًا عندك وراضيًا.

* * *

﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا (٧) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ

(*) إلا الآيتين ٥٨، ٧١ فمدنيتان.

خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا (٩) قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠) ﴾

فاستجاب له ربه وبشره بغلام اسمه يحيى، لم يُسم أحدًا بهذا الاسم من قبل. تعجب زكريا، وقال مستفسرًا: كيف يارب، ومن أين يتأتى لى ولد؟ ﴿ وَكَانَتِ امْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ وعتيًا تعنى حالة متقدمة من الكبر لا سبيل إلى مداواتها. قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ ﴾ هكذا قال ربك، وهذا أمرٌ هين ـ فإذا أراد شيئًا قال له ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ ـ وقد سبق أن خلقتك ﴿ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ قال زكريا: ﴿ رَبِّ اجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ﴾ رب اجعل لى أمارة على أن هذه البشرى من عندك ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ ستحبس عن الكلام ثلاث ليال، أو امنع نفسك ـ بإرادتك ـ عن الكلام ثلاث ليال.

* * *

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١) يَٰيَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥) ﴾

* * *

وخرج زكريا من محرابه على قومه، فأومأ إليهم مشيرًا ﴿ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ سبحوا ربكم صباح مساء، ثم وهب الله له يحيى، وقال له: ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ﴾ تعلم كتاب الله من توراة إلى زبور، واعمل به بقوة ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ رزقناه الحكمة وهو فى سن الصبا ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ﴾ وأشربنا قلبه بالحنان، وزكينا نفسه ﴿ وَكَانَ تَقِيًّا ﴾ . . . ﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ ﴾ . . . ﴿ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ جاءت كل هذه المنح والهبات من أكرم الأكرمين لعبده زكريا (ﷺ) لأنه طلب من الله من يحمل أمانة الرسالة من بعده، ولم يطلب ولدًا يفرح به فى الدنيا ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ ﴾ من خالق الأكوان ﴿ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾.

* * *

﴿ وَاذْكُرْ فِى الْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ

وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١) ﴾

* * *

واذكر يا محمد لقومك قصة مريم ﴿ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ اعتزلت قومها لتعبد الله فى ﴿ مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ فى جهة الشرق ﴿ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا ﴾ فاتخذت ساتراً حتى لا يشغلها عن العبادة شاغل ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ فأرسل الله إليها روحه. قال أكثر المفسرين: جبريل، والله أعلم ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ فظهر لها على شكل البشر سوى الخلق، ففزعت منه، واستعاذت بالله قائلة: ﴿ أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ قال مخلوف [إن كان يُرْجى منك تقوى الله، فإنى عائذة به منك، وهو كقول القائل: إن كنت مؤمنًا فلا تظلمنى] فطمأنها قائلاً: ﴿ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا ﴾ لن يمسك منى سوء، فما أنا إلا رسول ربك لأبلغك بهبة الله لك: غلام طاهر، فقالت متعجبة مستنكرة: ﴿ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ كيف أنجب ولدًا دون أن يمسنى بشر، فأنا لم أتزوج ولا أنا بغىٌ ﴿ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴾ هذا هو حكم الله أن تنجبى ولدًا دون أن يمسك بشر ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ وهذا أمر هين سهل على الله ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾ وليكون آية للعالمين على قدرة الله، ونبوة عيسى (ﷺ)، ورحمة لكل من آمن بذلك[1] ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ وكان خلق عيسى بهذه الكيفية الفريدة أمرًا مقدرًا من الله.

* * *

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣) فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦) ﴾

فلما أصبحت حاملاً به، اعتزلت الناس فى مكان بعيد ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ فجاء بها المخاض إلى جذع النخلة لتستتر به وتستند إليه للولادة، وحينئذ قالت: ﴿ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ قال سيد قطب: [. . فهى هنا وشيكة أن تواجه المجتمع بالفضيحة. ثم هى تواجه الآلام الجسدية بجانب الآلام النفسية. تواجه المخاض الذى «أجاءها» إجاءة إلى جذع النخلة، واضطرها اضطرارًا إلى الاستناد عليها. وهى وحيدة

(١) لا يؤمن كل المسيحيين فى أوروبا والولايات المتحدة بالميلاد المعجز للمسيح (ﷺ).

فريدة، تعانى حيرة العذراء فى أول مخاض، ولا علم لها بشىء، ولا معين لها فى شىء. فقالت: «ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا» فإننا لنكاد نرى ملامحها، ونحس اضطراب خواطرها، ونلمس مواقع الألم فيها. وهى تتمنى لو كانت «نسيًا». وفى حدة الألم وغمرة الهول تقع المفاجأة الكبرى:

﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ والسرىّ: النهر الصغير، وقيل لـ: السرى هنا غلام سامى القدر، وقيل: أمة بأكملها. ﴿ وَهُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِى وَاشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِى إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا(٢٦) ﴾.

ياالله! طفل ولد (فى) اللحظة يناديها من تحتها. يطمئن قلبها ويصلها بربها، ويرشدها إلى طعامها وشرابها. ويدلها على حجتها وبرهانها!

وهذه النخلة التى تستندين إليها هزيها فتساقط عليك رطبًا. فهذا طعام وذاك شراب. والطعام الحلو مناسب للنفساء. والرطب والتمر من أجود طعام النفساء ﴿ فَكُلِى وَاشْرَبِى ﴾ هنيئًا ﴿ وَقَرِّى عَيْنًا ﴾ واطمئنى قلبًا. فأما إذا واجهت أحدًا فأعلنيه بطريقة غير الكلام، أنك نذرت للرحمن صومًا عن حديث الناس وانقطعت إليه للعبادة. ولا تجيبى أحدًا عن سؤال.

ونحسبها قد دهشت طويلاً، وبهتت طويلاً، قبل أن تمد يدها إلى جذع النخلة تهزه ليساقط عليها رطبًا جنيًا.. ثم أفاقت فاطمأنت إلى أن الله لا يتركها. وإلى أن حجتها معها.. هذا الطفل الذى ينطق فى المهد.. فيكشف عن الخارقة التى جاءت به إليها.

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ﴾.. فلنشهد هذا المشهد المثير:

إننا لنتصور الدهشة التى تعلو وجوه القوم - ويبدو أنهم أهل بيتها الأقربون فى نطاق ضيق محدود - وهم يرون ابنتهم الطاهرة العذراء الموهوبة للهيكل العابدة المنقطعة للعبادة.. يرونها تحمل طفلاً!

﴿ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ إن ألسنتهم لتنطلق بالتقريع والتأنيب: ﴿ يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ فظيعًا مستنكرًا. ثم يتحول السخط إلى تهكم مرير: ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ ﴾ النبى الذى تنتسبين إليه بعبادتك وانقطاعك لخدمة الهيكل. فيا للمفارقة بين تلك النسبة التى تنتسبينها، وذلك الفعل الذى تقارفينه! ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ حتى تأتى بهذه الفعلة التى لا يأتيها إلا بنات آباء السوء والأمهات البغايا! وتنفذ مريم وصية الطفل العجيب التى لقنها إياها:

«فأشارت إليه» . . فماذا نقول فى العجب والغيظ الذى ساورهم وهم يرون عذراء تواجههم بطفل؛ ثم تتبجح فتسخر ممن يستنكرون فعلتها فتصمت وتشير لهم إلى الطفل ليسألوه عن سرها!

قالوا: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾؟!.

ولكن ها هى ذى الخارقة العجيبة تقع مرة أخرى:

«قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)﴾ وهكذا يعلن عيسى ـ عليه السلام ـ عبوديته لله. فليس هو ابنه كما تدعى فرقة. وليس هو إلهًا كما تدعى فرقة. وليس هو ثالث ثلاثة هم إله واحد وهم ثلاثة كما تدعى فرقة. . ويعلن أن الله جعله نبيًا، لا ولدًا ولا شريكًا. وبارك فيه، وأوصاه بالصلاة والزكاة مدة حياته. والبر بوالدته والتواضع مع عشيرته. فله إذن حياة محدودة ذات أمد. وهو يموت ويبعث. وقد قدر الله له السلام والأمان والطمأنينة يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًا].

* * *

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٣٦) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧)﴾

تلك هى حقيقة عيسى الذى يشكون فيه ويتنازعون، فاليهود يقولون إنه ابن زنًا، والمسيحيون يختلفون فى طبيعته ويتجادلون حتى جعلوا لجدالهم علمًا سموه علم المسيح، واتفق معظمهم على أنه ابن الله، وكذلك على أنه الله مع خلاف على طبيعته الإلهية والبشرية، أو اللاهوت والناسوت ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ﴾ تنزه الله عن أن يتخذ ولدًا، فقد خلق الله التناسل لعبيده ليستمروا على الأرض، فلا يفنون، ولينعم ويسعد الآباء بالأبناء، وليساعد الأبناء الآباء عند كبرهم وما إلى ذلك، فتعالى الله عن كل ذلك، وهو إذا أراد ﴿شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ قل لهم يا محمد إن ﴿اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ فتعالوا نؤمن به ونعبده لنكون على الصراط المستقيم، ورغم ذلك فقد اختلف أهل الكتاب فى

عيسى (ﷺ) وذهبوا مذاهب شتى، فويل للذين جحدوا آيات الله فى عيسى (ﷺ) مما يلاقونه يوم الحساب.

* * *

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٨) وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠) ﴾

ما أسمع ولا أبصر من الكفار يوم القيامة ولكن سمع وبصر لا يفيد شيئًا، وقيل بل المقصود اسمع يا محمد ومن معك، وأبصروا ماذا سيحدث لهم يوم القيامة، لكنهم كانوا فى الحياة الدنيا ﴿ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ لأنهم عطلوا أسماعهم وأبصارهم ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ ﴾ وأنذرهم يوم القيامة، يوم الحسرة؛ إذ ينالون جزاء غفلتهم وجحودهم عندما يرث الله الأرض ومن عليها، وعندما يرجع كل البشر إليه.

* * *

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) ﴾

واذكر يا محمد فى القرآن قصة إبراهيم أبى الأنبياء (ﷺ) ﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا ﴾ صديق هو فعيل من صدق، وهى صيغة مبالغة تبين التزامه الشديد للصدق فى الإيمان الذى يصحبه الصدق فى القول والعمل؛ إذ قال متوددًا مترفقًا متلطفًا لأبيه ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴾ يقصد الأصنام ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ لقد وهب الله لى من العلم ما لم يأتك ﴿ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾ فاتبعنى ولا تستكثر ذلك، أهدك إلى الطريق المستقيم ﴿ يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ﴾ بعبادتك لأصنام لا تضر ولا تنفع اتباعًا للشيطان وعصيانًا للرحمن، فتكون كمن عبد الشيطان بدلاً من الرحمن ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴾ ثم يتقرب إليه بالنداء المحبب لكل أب ﴿ يَا أَبَتِ ﴾ ويبين حبه له وخوفه عليه ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) ﴾ إنى أخاف عليك من عذاب الله ومن أن يطردك من رحمته، فتصبح من أولياء الشيطان بدلاً من أن تكون من أولياء الله.

* * *

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠) ﴾

فإذا بأبيه يقابل تلك الرقة والاسترحام والاستعطاف بجفاء: لئن لم تتوقف عن دعوتك ﴿ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾ بالحجارة، ولكنها تستخدم أيضًا بمعنى إطلاق اللسان باللعن والسباب ﴿ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ اغرب عن وجهى زمنًا طويلاً. فأجابه إبراهيم حزينًا مشفقًا منكسرًا ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكَ ﴾ لا يمكننى إلا أن أدعو لك بالسلام ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ سأستغفر ربى لك، إن ربى كثير الاحتفاء بى، وأطمع حين استغفر لك أن يستجيب لى، ولكنى سأضطر إلى اعتزالكم وما تدعون من آلهه لا تضر ولا تنفع ﴿ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ فلن يشقى من يدعو الله بإخلاص ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) ﴾ وهكذا كان رد السماء بأن رزقه بعد اليأس والشيخوخة أنبياء من الأبناء والأحفاد إسماعيل من هاجر، وجاء من ذريته خاتم الأنبياء محمد (ﷺ)، ووهبه من سارة إسحاق، ومن إسحاق يعقوب، صلى الله عليهما وسلم ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ وجعلنا لكلٍّ منهم لسان صدق، عالى المراتب بموازين الله.

* * *

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣) ﴾

واذكر لقومك يا محمد فى القرآن من قصة موسى ﴿ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا ﴾ أخلصه الله لعبادته وحمل أمانة التكليف ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾ الرسول فى اللغة: هو من يُرسل لشخص أو قوم بمهمة أو بمهام متنوعة، وفى الشرع: غالبًا ما يكون المقصود بالرسول من يرسله الله إلى قوم بتكاليف وتعاليم تتعدد وتتنوع وفقًا للحكمة الإلهية، أما اسم النبى فهو اشتقاق من الإنباء، وتعنى فى الشرع الإنباء عن الله وعما يجازى به فى الغيب، وقال الزمخشرى: [الرسول: الذى معه كتاب من الأنبياء، والنبى: الذى ينبئ عن الله عز وجل، وإن لم يكن معه كتاب]، وقال القاضى عياض فى كتاب الشفا: [الصحيح الذى عليه الجمع الغفير أن كل رسول نبى، وليس كل نبى رسولاً] ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ ﴾ قال الماتريدى: [إن كان الأيمن من اليمن والبركة، فيكون تأويله: ناديناه من جانب الطور المبارك. وقال بعضهم: يمين

موسى. قال أبو بكر الأصم: هذا لا يُعلم إلا بالخبر] ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ قربه الله إليه وناجاه بلا واسطة ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣)﴾ ليشد من أزره.

***

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨)﴾

واذكر يا محمد في القرآن إسماعيل بن إبراهيم، صلى الله عليهما وسلم ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ حين أخبره أبوه بذبحه، وعده إسماعيل بأن يكون صابرًا، وصدق وعده فصبر حتى أرسل الله كبشًا فداءً له، فمن يصدق الوعد بالصبر على ذبحه فأى وعد بعد ذلك يخلفه؟ فكرمه الله بأن جعله رسولاً نبيًا، كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة، فلكل ذلك رضى الله عنه وأرضاه، واذكر في الكتاب يا محمد إدريس (ﷺ) إنه كان صديقًا نبيًا ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧)﴾ ورفعه الله إلى مكانة عالية، فالعلو معنوى، وهو شرف النبوة والزلفى عند الله، أولئك الأنبياء الذين ذكرناهم، أنعم الله عليهم بالنبوة، إذا تنزلت عليهم آيات الله، سجدوا لله بوجوههم على الأرض باكين خاشعين متذللين.

***

﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠) جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلاَّ سَلاَمًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا (٦٣)﴾

من بعد هؤلاء المصطفين الأخيار، جاء أقوام على غير هديهم، فضيعوا الصلاة وسلكوا طريق الأهواء والشهوات، فسوف يُجزَون شرًا، إلا من تاب وآمن وعمل صالحًا فسيوفيهم الله وعده، ويجعل الجنة دار إقامتهم، لا يُظلمون شيئًا من أعمالهم، ولا يسمعون فيها كلامًا سيئًا ولا فارغًا، ورزقهم فيها خيرات لا تنفد صباح مساء ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا (٦٣)﴾.

***

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥) ﴾

يبدو أن الرسول (ﷺ) استبطأ نزول جبريل عليه فى إحدى الملمات، فجاء البيان أن جبريل لا ينزل إلا بأمر الله وتقديره، فهو مالك الكون والقائم بكل أموره فيما مضى وما سيأتى، ولا يغيب عنه مثقال ذرة، ولا تأخذه سنة ولا نوم، وهو وحده المستحق للعبادة ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ شبيهًا أو نظيرًا مضاهيًا، وفى السؤال تقرير لوحدانيته، وأنه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾.

* * *

﴿ وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا (٧٠) وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ﴾

ويقول الإنسان المنكر للبعث ﴿ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ فيجيبه خالقه ﴿ أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧) ﴾ ثم يقسم بنفسه ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ﴾ سنحشر تلك النطف الخصيمة إذا استمرت على تكبرها وجحودها مع الشياطين، ولنحضرنهم جميعًا حول جهنم ﴿ جِثِيًّا ﴾ باركين على ركبهم من الخوف والذل والمهانة ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ ﴾ ثم لنستخرجَنَّ من كل جماعة من الكفار أكثرهم كفرًا، ونحن أعلم بأكثرهم استحقاقًا لنار جهنم ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ المؤمن يرد على النار ولا يدخلها، أو يدخلها لفترة، أما الكافر فهى مثواه ومرقده وبئس المصير. وقال رسول الله (ﷺ): «يرد الناس كلهم النار، ثم يصدرون بأعمالهم» رواه الترمذى ﴿ كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ قضى الله هذا الأمر المحتوم الذى لا محالة واقع.

* * *

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا (٧٤) قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا (٧٥) وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا (٧٦) ﴾

ثم ينجى الله الذين اتقوا من النار، ويترك الظالمين فيها جاثين على ركبهم خوفًا وذلة ومهانة، أولئك الذين ظلموا كانوا فى الحياة الدنيا يتكبرون ويسخرون من آيات الله عندما تتلى عليهم، ويتكبرون على المؤمنين، ظانين أنهم الأفضل والأعلى ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا ﴾ وكم أهلك الله من الأقوام السابقة من كانوا أفضل منهم فى المنظر والمظهر، فلا تغرنكم تلك المتع ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِى الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾ قل لهم من أصر على الضلالة، يمهله الله ويمد فى ضلالته ﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ ﴾ فى الدنيا ﴿ وَإِمَّا السَّاعَةَ ﴾ يوم البعث والحساب، فحينئذ ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴾ أما الذين اهتدوا واتقوا وعملوا ليوم الحساب فسيزيدهم ربهم هدى ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ الطاعات المؤدية إلى رضا الله أنفع فى الآخرة مما يتمتع به الكفار من النعم الدنيوية.

***

﴿ أَفَرَءَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠) وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤) ﴾

انظر يا محمد وتعجب من أمر الكافر الذى ينكر البعث والحساب ويقول إذا مت وبُعثت فسأجد فى الآخرة المال والولد. هذا المجترئ على الله ﴿ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ عرف الغيب أم أوثق معاهدة مع الله على ذلك؟ لا هذا ولا ذاك ﴿ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) ﴾ إن الذى يدعيه يكتب فى صحيفته وسيطول بسببه عذابه ﴿ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ ﴾ نأخذ منه ما يقول عنه إنه له وهو المال والولد ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ ليس معه إلا عمله، ومن يتخذون آلهة فى الدنيا، تصنعها لهم أهواؤهم ﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢) ﴾ وهذا حال المشركين يوم الحساب؛ تكفر بهم آلهتهم، وينقلبون عليهم ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣) ﴾ ألم تعرف يا محمد ومن تبعك أن الله أرسل الشياطين على الكافرين تغريهم على المعاصى ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ﴾ لا تستعجل أمر الله فيهم ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ نعد أعمالهم وأنفاسهم إلى يوم الحساب.

***

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا (٨٦) لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٨٧) وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥) ﴾

يوم نحشر المتقين إلى رحمة الله وفدًا، ونسوق المجرمين إلى جهنم كالدواب المسرعة إلى الماء من شدة العطش ﴿ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ لا تشفع لهم أموالهم ولا أولادهم ولا سلطانهم فى الدنيا، ولكن يشفع للصالحين الإيمان والعمل الصالح ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) ﴾ مثل من قال إن عيسى (عليه السلام) ابن الله ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) ﴾ لقد أتيتم منكرًا فظيعًا ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴾ من فظاعة القول ﴿ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) ﴾ فهو الغنى عن الصاحب والولد، وهو الواحد الأحد ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) ﴾ فجميع المخلوقات عبيد لخالقهم، وجميعهم كادحون للقاء الله ﴿ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) ﴾ وما ذلك على الله بعزيز ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥) ﴾ بلا أولاد ولا أموال ولا نفوذ ولا سلطان، إلا الإيمان والأعمال.

***

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا (٩٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨) ﴾

أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فسيجدون عند الرحمن ﴿ وُدًّا ﴾، فهل هناك مغنم أو مطمح بعد ذلك؟ ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ ﴾ ربما يكون القرآن هو الكتاب السماوى الوحيد الذى دُوِّنَ وحُفِظَ بلغة من نزل عليه، وحفظه المؤمنون به من يوم نزوله وحتى اليوم ـ وإن شاء الله إلى قيام الساعة ـ بنفس لغة نزوله، دون فقد ولا تغيير ﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ فهو بشرى للمتقين، وإنذار للمتكبرين الجاحدين، شديدى العداوة والخصومة ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴾ لكم أهلكنا أمثالهم من الأمم السابقه، هل تحس بهم الآن، أو حتى ﴿ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ صوتًا خفيًا؟.

***

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طه (١) ﴾ قال الزمخشرى: [الله أعلم بصحة ما يقال: إن (طاها) فى لغة عك (لغة عربية يمنية) فى معنى يارجل]، وقال محمد الغزالى: [هما حرفان من حروف الهجاء، وليسا اسمًا للنبى (ﷺ) ولم يرد ذلك فى حديث صحيح، وهما من الحروف المفردة التى بدأت بها سور شتى، والله أعلم بمراده منها].

* * *

﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢) إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٣) تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى (٤) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ (٥) لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ (٦) وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ (٨) ﴾

كان (ﷺ) يتفانى فى دعوة الناس إلى الإيمان بالله الواحد الأحد، وكان يأسف أشد الأسف إذا أعرضوا واستكبروا عن الحق، وأصروا على الكفر مما جعل رب العالمين يواسيه كى لا يشقى بإعراضهم عما يدعوهم إليه من البلاغ المبين، فأنزل عليه ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢) ﴾ ـ مثلما أنزل عليه ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ [فاطر: ٨] ـ ﴿ إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٣) ﴾ لقد أنزلنا هذا القرآن ليهتدى به من يتذكر ويفكر ولا يخشى إلا الله

(*) إلا الآيتان ١٣٠، ١٣١ فمدنيتان.

﴿ تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى (٤) ﴾ نزَّل هذا القرآن عليك خالق الأرض والسموات ﴿ الْعُلَى ﴾ وهى جمع العليا، فجمع بذلك بين المادى المحسوس والمُداس عليه، والغيبى الذى يتطلع الناس إليه وينسبون له الخير والعلا ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) ﴾ المقصود طلاقة القدرة الإلهية، فالله خالق المكان والزمان، وراجع ما جاء عن الاستواء على العرش فى الآيات: ٥٤ من سورة الأعراف، والآية الثالثة من سورة يونس، والآية الثانية من سورة الرعد ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (٦) ﴾ مالك كل الأكوان، من أعلاها إلى أسفلها، وما دفن فى باطن الأرض تحت التراب ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ يعلم الأسرار وأحاديث النفس وخواطرها ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤] ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (٨) ﴾.

***

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥) فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (١٦) ﴾

قال محمد الغزالى: [مع أن قصة موسى تكررت بضع عشرة مرة فى القرآن الكريم، إلا أن سياقها يختلف اختلافًا كبيرًا فى شتى مواضعه، فأنت واجد فى كل موضع مالا تجده فى الموضع الآخر].

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩) ﴾ يذكِّر الله محمدًا بخبر موسى ليعتبر، ويعتبر المؤمنون. لقد ﴿ رَأَى نَارًا فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾ إنى أبصرت نارًا ﴿ لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ ﴾ لعلى آتيكم بشعلة أقتبسها من هذه النار تضىء لنا ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ من يهدينا إلى الطريق السوى ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ تعظيمًا وخشوعًا حين يتجلى الله بفضله على أحد من عباده ﴿ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ ﴾ المطهر المبارك ﴿ طُوًى ﴾ هو اسم الوادى، وأنا اخترتك لتتلقى وحيى وتبلغ رسالتى ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴾.

لا تنحصر إقامة الصلاة فى أدائها، وإنما تشمل القيام بما تأمر به الصلاة ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وتبين الآية أنه بعد

امتناع المرء عن الفحشاء والمنكر، يرتقى به ذكر الله، وهو استشراف حضرة الله مع كل قول وكل عمل، بل مع كل خاطر وكل نفس، ثم تقرر الآية التالية: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ الموت، ثم البعث هما نهاية المطاف، و الحياة الحقيقية هى بعد البعث والحساب ـ ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤] ﴿الْحَيَوَانُ﴾ تعنى الحياة الدائمة الخالدة، وحيوان صيغة مبالغة من حياة على وزن فعلان ـ فإذا صحت العقيدة، وسلك المؤمنون سبيل الله، أى آمنوا وعملوا الصالحات، فلزموا شرع الله، لم يُفلح فى صدهم عنه ﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ وهو لا يؤمن بها لأنه يريد إقامة موازينه فى الحياة على هواه، فعبد هواه وما زينه له من عقائد وأفكار ونظريات، وما زينته له نفسه، وما أوحى لها شياطين الإنس والجن، ثم تنتهى الآية بتحذير نهائى فى كلمة واحدة ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ فتهلك إذا استجبت لمن صدك عن سبيل الله.

* * *

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ (٢١) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣)﴾

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧)﴾ إن الله يعلم ما فى يمين موسى، ولكنه ـ سبحانه ـ يسأله عن يده اليمنى وعصاه، لما سيكون من أمرهما فيما بعد ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا﴾ أستند عليها ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ أحرك وأحمى بها غنمى ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ وأقضى بها حاجات ومنافع أخرى ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ تحولت إلى حية تتحرك، فخاف موسى (ﷺ)، فقال تعالى ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾ ستعود عصا مرة أخرى ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ ضع يدك تحت إبطك ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ تخرج بيضاء بلا مرض أوعيب ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣)﴾.

* * *

﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥)﴾

اذهب يا موسى إلى فرعون مصر ﴿إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ فدعا موسى (عليه السلام) ربه قائلاً: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨)﴾ لم يتوان موسى (عليه السلام) في قبول المهمة الصعبة، أو حتى المستحيلة، فهو يعرف فرعون وملأه، يعرف تكبرهم وجهلهم الفرعوني، ودعا الله أن يطلق لسانه بالحجة في مجلس فرعون ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠)﴾ ودعا الله أن يجعل هارون مساعداً له في هذه المهمة ليشد من أزره ويشاركه المهمة الصعبة، وختم موسى (عليه السلام) دعاءه قائلاً: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤)﴾ فتسبيح الله لا يكون فقط بإمساك المسبحة، وذكر الله لا يكون فقط في مجالس الذكر، لكنه في العمل والجهاد في سبيل الله بالوقت والمال والنفس بالرخيص والغالي ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥)﴾ إنك ياربي بصير بأمري وأمر أخي هارون وأمر فرعون.

***

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ (٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١)﴾

استجاب الله لموسى (عليه السلام) ـ كما تفضل على كل من يجاهد في سبيله بقوله ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] ـ ثم بين الله منته على من يقوم برسالته ويجاهد في سبيله بما لا يترك للمترددين عذراً ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ وكانت المرة الأولى عندما أمر فرعون بقتل كل وليد خوفًا مما حذره الكهنة ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ﴾ فأوحينا إليها ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾ ضعيه في صندوق ﴿فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ ثم اقذفي به في الماء ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ يدفعه الماء إلى الشاطئ، فيلتقطه فرعون الذي هو عدو الله وعدو موسى، وهيأت لك ما جعل كل من يراك يحبك ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ فرغم أنك نشأت في قصر عدو الله وعدوك، إلا أنك نشأت برعايتي، ورفضت المراضع، فأرسلت أختك لتعود بك إلى أمك ترضعك وتقر عينها بك ولا تحزن. ﴿مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ قد تعني أن إجابة الله سؤال موسى هو هذه المرة الأخرى، وقد تعني أن وحي الله لأم موسى هو المرة الأخرى، فيكون خلق الله موسى (عليه السلام) هو المرة الأولى، ولأهل الباطن أن يقولوا إن ذلك الترتيب يخص البشر، أما الله ـ سبحانه وتعالى ـ خالق الزمن والحدث فلا

يعنى الترتيب عنده ما يعنيه عندنا، والله أعلم بما يقصده بقوله ذلك. ثم عندما بلغت سن الفتوة، قتلت نفسًا، فعفونا عن ذلك ونجيناك من غم الإثم، ثم فتناك المرة تلو المرة، ومكثت سنين فى أهل مدين، حتى جئت بك ثانية لرسالتك، بعد أن تعهدت بتربيتك وتنشئتك لتعمل فى سبيلى.

***

﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ (٤٧) ﴾

يقول تعالى لموسى (ﷺ): اذهب أنت وهارون بآياتى ـ التى شاهدت بعضًا منها، والتى سنؤيدك بكثير منها ـ إلى فرعون ﴿ وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾ ولا تفترا فى تبليغ رسالتى ﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) ﴾ إذهبا إلى فرعون الذى تجاوز الحد فى كفره ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) ﴾ وكلماه باللين واللطف، لعله يتذكر الحق فينفض ثوب الاستكبار والجحود، أو يخشى العقاب وسوء الحال فيرتدع، فقالا لربهما: إننا نخاف أن يتهور علينا ويزداد طغيانًا، قال تعالى مطمئنًا: ﴿ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ وما عليكما إلا أن تقولا له ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ جئنا إليك بأمر من الله، وربما تلك كانت المرة الأولى التى يقول فيها أحد لفرعون ﴿ رَبِّكَ ﴾ بل ويطلب منه ألا يعذب بعضًا ممن اعتبرهم عبيده، ولذلك أمرهما الله أن يستمرا قائلين ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ بالعبودية والسخرة ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ وها نحن قد جئناك ببينة من ربك ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴾ وسيحل عليك السلام إذا ما اتبعت الهدى الربانى، فبعد أن طالبا فرعون بالحق، بأقصر الطرق وأوجز الكلام، ودون قذف أو اتهام، حاولا استمالته بالسلام.

***

﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٤٨) قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (٥٢) ﴾

ثم جاء دور التخويف بالعذاب ﴿أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ قال فرعون: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾؟ قال موسى (ﷺ): ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ ربنا هو الذى خلق كل ما فى الكون من مخلوقات على أشكالها المتنوعة، ثم هداه لمعيشته التى خلقه الله لها، سواء كان بشراً أو ملائكة أو جماداً أو حيوانًا، أو قوانين الله وسننه فى الكون، إلى ما لا نعلمه من أكوان الله ومخلوقاته. قال فرعون: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ ما حال وشأن الأمم السابقة؟ قال موسى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾.

* * *

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ (٥٥) وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ (٥٦)﴾

خاطب موسى (ﷺ) فى فرعون فطرته ومداركه، فلما وجد أن فرعون عطل ذلك كله، لجأ إلى المعجزات الحسية التى تليق بأمثال من عطل أو تعطلت عنده الآليات التى وهبها الله له، فأراه العصا التى تحولت إلى حية، ويده التى أصبحت بيضاء من غير سوء، ورغم ذلك تكبر فرعون وجحد، فكذّب وأبى اتباع الحق. وتقول الآية ﴿أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا﴾ وكان كل ما رآه فرعون حتى تلك المرحلة آيات خطاب الفطرة والمدارك، وآيتين معجزتين: العصا واليد، فكيف تكلمت الآية عن ﴿آيَاتِنَا كُلَّهَا﴾؟ يحتمل أن المقصود أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أرى فرعون نوعى الآيات: آيات الفطرة والعقل والمدارك، وآيتين من آيات المعجزات الحسية أو المادية، فمن رفض ذلك، فسيرفض أى مزيد يأتيه من نفس النوع.

* * *

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩) فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ (٦٠) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (٦١)﴾

لم يطلب موسى (ﷺ) من فرعون الخروج من الأرض، ولكن فرعون الذى ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨]، والذى كان يقول بجهله واستبداده الفرعونى ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] يلفق

تهمة لموسى (ﷺ) ليقلب عليه الشعب: إن موسى يريد أن يخرجكم من أرضكم! وهو يستخدم السحر لتنفيذ هدفه الخبيث! ثم يتصنع فرعون أنه يدافع عن شعبه: سيأتى لموسى بسحر يبطل سحره... ثم يطلب من موسى تحديداً موعداً لتلك المعركة المفتعلة والتى ستغطى أحداثها على المعركة الرئيسية: إنهاء طغيان فرعون وإرسال بنى إسرائيل مع موسى (ﷺ)، فقال موسى: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ موعدكم ضحى يوم العيد، فاحشروا قومكم فيه، وذهب فرعون يجمع كيده ويعد العدة لذلك اليوم الموعود، وجاء ببطانته وسحرته، فقال موسى (ﷺ) للسحرة: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم﴾ فيبيدكم ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾.

***

﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ (٦٢) قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ (٦٤)﴾

اهتز واختلف فرعون وبطانته، أو اختلف السحرة، أو اختلفوا كلهم لما جاءهم الحق على لسان موسى (ﷺ) ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ﴾ وراحوا يتناجون سرّاً، ثم رددوا التهمتين اللتين لفقهما فرعون: موسى وهارون ساحران، ويريدان أن يخرجا المصريين من أرضهم! ويريدان تغيير طريقتكم المثلى فى الحياة، فوحدوا صفوفكم ضدهما، واجمعوا مكركم ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ (٦٤)﴾.

***

﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩)﴾

وخيّر السحرة موسى (ﷺ) فيمن يلقى أولاً، فقال لهم: ﴿بَلْ أَلْقُوا﴾ أنتم أولاً، وعندما ألقوا إذا بحبالهم وعصيهم يخيل للناظر من شدة سحرهم كأنها تزحف ساعية ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧)﴾ فأحس موسى الخوف فى نفسه، فقال تعالى له: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ

أَنتَ الأَعْلَىٰ ﴾ ثم أمره بإلقاء عصاه لتلقف وتبتلع مرة واحدة كل ما ألقوه؛ لأن فعلهم ﴿ كَيْدُ سَاحِرٍ ﴾ مجرد مكر ساحر ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾.

* * *

﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (٧٣) إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (٧٤) وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ (٧٦) ﴾

بعدما رأى السحرة قدرة الله في عمل موسى (ﷺ)، خروا لله سجداً، وأعلنوا إيمانهم برب هارون وموسى ـ عليهما الصلاة والسلام ـ وجن جنون فرعون، وقال لهم مهدداً: ﴿ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾ لأنه يعتقد أنه ربهم الأعلى، فكيف يجرءون على إعلان الإيمان برب هارون وموسى؟! ثم هداه تفكيره العبقري المنحصر في الشر وفي تلفيق التهم والمؤامرات ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ﴾ إن موسى هو كبير السحرة الذي يدبر انقلاباً على القصر ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ فبلغ فرعون بذلك منتهى التكبر والجحود الذي جعله جديراً بالآية السابقة ﴿ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ (٥٦) ﴾ ولم يأبه السحرة بعد إيمانهم بالله بتهديدات فرعون، فقالوا بعد أن استقر الإيمان في نفوسهم ووجدوا حلاوته في أرواحهم: ﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ ﴾ لن نفضلك ﴿ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ بعد أن شاهدنا الآيات، ولن نفضلك على الله، وقيل ﴿ وَالَّذِي فَطَرَنَا ﴾ قسم، فيكون المعنى: وأقسموا بالله الذي خلقهم ﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ﴾ اصنع ما بدا لك ﴿ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ فإن هذه الدنيا حتماً إلى زوال، ويكفينا ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ﴾ فقد أيقنا أن ﴿ اللَّهُ خَيْرٌ ﴾ منك ﴿ وَأَبْقَىٰ ﴾ وله الدوام ﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا ﴾ كافراً ﴿ فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ أما الذي يلقى ربه في الآخرة وقد عمل صالحاً، فأولئك لهم المنازل الرفيعة في جنات عدن التي ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ وهذا هو جزاء من زكى نفسه، قال القرطبي: [ابتداء

من ﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا ﴾ قيل: هو من قول السحرة لما آمنوا، وقيل: ابتداء كلام الله عز وجل].

* * *

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ (٧٩) ﴾

ثم أوحى الله إلى رسوله موسى (ﷺ) أن يسير بقومه المؤمنين ليلاً ﴿ فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا ﴾ اضرب بعصاك البحر فينفلق، ويترك لك طريقًا من اليابس كي تمروا عليه ﴿ لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ لن يدركك فرعون وجنوده، فلا تخش ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) ﴾ وحين تبعهم فرعون وجنوده، أغرقهم ماء البحر ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴾.

* * *

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ (٨٠) كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ (٨٢) ﴾

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ ﴾ فرعون وجنوده ﴿ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ ﴾ واعد الله رسولهم موسى (ﷺ)، أو موسى (ﷺ) ومن اختاره منهم ـ في جانب الطور الأيمن في سيناء ـ ليعطيه الله الألواح التي فيها هداكم وشريعتكم ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ ﴾ نوع من الحلوى ينزل على الشجر كالعسل ﴿ وَالسَّلْوَىٰ ﴾ طير السمان ﴿ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا ﴾ وإياكم والظلم والطغيان وإلا سيحل ﴿ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ فقد سقط، وفي الوقت نفسه أنا كثير الغفران لكل من توقف عن العصيان، وآمن بالله، وعمل الصالحات، ثم اهتدى بذلك.

* * *

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن

رَبُّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِىُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ (٨٨) أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا (٨٩) ﴾

ما الذى أسرع بك حتى تركت قومك؟ قال أكثر المفسرين: إن المقصود بالقوم هنا النقباء الذين اختارهم موسى، كما جاء فى سورة الأعراف ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا(١٥٥) ﴾، بينما قال القرطبى: [قيل: عنى بالقوم جميع بنى إسرائيل، فعلى هذا قيل: استخلف هارون على بنى إسرائيل، وخرج بسبعين رجلاً للميقات] قال موسى: ﴿ هُمْ أُولاَءِ عَلَىٰ أَثَرِى ﴾ أى: إنهم قادمون خلفى مقتفون أثرى ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ وسارعت إلى لقائك لترضى. قال تعالى: ﴿ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ ﴾ فقد ابتليناهم من بعدك، والمقصود هنا بقية القوم وليس النقباء ﴿ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِىُّ ﴾ بعمل العجل وعبادته. فعاد موسى إلى قومه ﴿ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾ أى شديد الحزن ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ﴾ ذلك الوعد الحسن مثل قوله فى الآية السابقة رقم ٨٢ ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾، ومثل إخراجهم من عبودية فرعون، ثم عبورهم البحر وغرق فرعون وجنوده خلفهم، ومثل التوراة التى سينزلها على موسى (ﷺ) ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ ﴾ هل طالت غيبتى حتى تنتكسوا وتعبدوا غير الله؟ أو طال عليكم العهد بالإيمان بالله وعبادته وحده؟ ﴿ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴾ قال القوم: ﴿ مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ﴾ لم نفعل ذلك بإرادتنا، ولكن حين خرجنا من مصر؛ أخذنا من المصريين حليهم وزينتهم الذهبية، فصهرناها، وكذلك فعل السامرى، ثم صنع منها عجلاً يصدر منه خوار، ثم قال السامرى: ﴿ هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ ﴾ ونسى الله، ونسى رسوله موسى ﴿ أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا (٨٩) ﴾ ألم يدركوا أن هذا العجل لا يرد عليهم قولاً، ولا يملك لهم النفع أو الضر.

* * *

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوا أَمْرِى (٩٠) قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ (٩١) قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى (٩٣) قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلا بِرَأْسِى إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى (٩٤) ﴾

ولقد نصحهم هارون ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ ﴾ حين رأيتم العجل يخرج أصواتًا، ورغبتم أن يكون لكم إله متجسد، كما طلبتم من موسى (عليه السلام) ذلك بعد خروجكم من مصر، وكما رأيتم المصريين يعبدون العجل وغيره من الآلهة ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ ﴾ فثوبوا إلى رشدكم ولا تعبدوا إلا إياه، واتبعوا أمرى وأطيعونى بالكف عن السجود لهذا العجل. قالوا مصرين ﴿ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ ﴾ سنظل نعكف على عبادة العجل حتى يرجع إلينا موسى. قال موسى لهارون: ما الذى منعك من اتباع أمرى بعد أن رأيت ضلالهم؟ هل عصيت أمرى؟ قال هارون منكسراً بعدما أخذ موسى يوبخه ويجره من لحيته ورأسه من شده الغضب: ﴿ يَا بْنَؤُمَّ ﴾ يسترحمه ويستعطفه بأمهما ﴿ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلا بِرَأْسِى إِنِّى خَشِيتُ ﴾ إنى خفت إن شددت عليهم أن ينقسموا، فتقول لى ﴿ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾.

***

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِىُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى (٩٦) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِى الْيَمِّ نَسْفاً (٩٧) إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِى لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً (٩٨) ﴾

التفت موسى (عليه السلام) إلى السامرى سائلاً إياه: ﴿ فَمَا خَطْبُكَ ﴾ ما هذا الجرم الخطير الذى فعلته؟ قال: ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴾ عرفت ما لم يعرفوا، فأمسكت بشىء من أثر الرسول، وألقيته، وهكذا زينت لى نفسى. قال الماتريدى: [وجب حفظ ما حكى فى الكتاب (القرآن) من الأنباء والأخبار من غير زيادة ولا نقصان مخافة الكذب، إلا إن ثبت شىء يذكر عن رسول الله أنه كان، فعند ذلك يقال، وإلا الكف (عن النقل والشرح) أولى]. لم يجد المفسرون تفصيلاً فى القرآن عن تلك الآية، ولم يجدوا حديثًا صحيحًا عن الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فالأولى الكف عن الخوض فى هذا الغيب وعدم الأخذ من تراث أهل الكتاب لعدم التيقن من صحته. ويمكننا الاعتبار من هذه الآية بمعرفة أن صاحب البدعة الضالة يزعم أنه يعرف أكثر مما يعرفه الآخرون. قال موسى (عليه السلام) غاضبًا ﴿ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ ﴾ اذهب وسينفر عنك الناس، فلن يقربوك ولن تقربهم ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّن تُخْلَفَهُ ﴾ وهو اليوم الموعود فى الآخرة الذى لا يتخلف عنه أحد ﴿ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَهِكَ ﴾ إلى العجل الذى اتخذته ربّا لسوف نحرقه، ثم نلقيه

رماداً في الماء، ثم اتجه موسى إلى قومه قائلاً: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

* * *

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً (١٠١) يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا (١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا (١٠٤)﴾

يقول تعالى لرسوله محمد (ﷺ): ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ لتعلم أنت والمؤمنون كم عانى الرسل مع أقوامهم ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ وقد أنزلنا عليك قرآنًا من يعرض عنه ﴿فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ عقوبة ثقيلة على ذلك الإعراض ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ يوم ينفخ الملك في البوق؛ ليخرج الناس من قبورهم ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ زُرْق الوجوه من هول الكرب ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يتحدث المجرمون بصوت خفيض قائلين يبدو أننا لبثنا من قبل عشرة أيام، والله أعلم بما يقولون ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أذكاهم ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا﴾ يبدو أننا لم نلبث إلا يومًا واحدًا.

* * *

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا (١٠٨) يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً (١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠)﴾

ويسألونك عن الجبال الراسيات أين تذهب يوم الحساب؟ فقل لهم يا محمد: ﴿يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ فيترك آثارها أرضًا ﴿صَفْصَفًا﴾ مستوية ﴿لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا﴾ اعوجاجًا ﴿وَلا أَمْتًا﴾ ولا أدنى نتوء أو ارتفاع، يومئذ يتبع البشر داعيهم للحساب، لا ينحرفون عنه ﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا﴾ من هول الموقف ﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً (١٠٩)﴾ لا وساطة ولا شفاعة لأحد إلا إذا أذن الله له.

* * *

﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (١١٢) وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (١١٣) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤) ﴾

وخضعت واستسلمت الوجوه ﴿ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ﴾ القائم على كل ما فى الكون ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ وفى المقابل ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (١١٢) وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ وكذلك أنزلنا الذكر باللغة العربية المبينة، أوضح ما يكون البيان ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ ﴾ نوعنا فى ذكر الوعيد ما تقشعر منه الأبدان وترتعد النفوس، لتفيق إلى الرشد وتتقى الله ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ يجعل لهم من خلقهم وخلافتهم على الأرض، وابتلائهم عليها، وبعثهم للحساب شأنًا يهتمون به ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ وكل ما دونه باطل ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ قال الماتريدى: [أى: لا تعجل بما ذكر من الوعيد لهم فى القرآن من قبل أن يأتى وقته؛ كقوله: ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ [مريم: ٨٤]. وقوله: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ جائز ما قال أهل التأويل: إنه كان يتلو مع تلاوة جبريل. وجائز النهى من غير أن كان منه ما ذكر، والله أعلم]، وقال البيضاوى: [نهى عن الاستعجال فى تلقى الوحى من جبريل (عليه السلام) ومساوقته فى القراءة (القراءة معه) حتى يتم وحيه بعد ذكر الإنزال على سبيل الاستطراد. وقيل: نهى عن تبليغ ما كان مجملاً قبل أن يأتى بيانه]. ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾.

***

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ (١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ (١٢٠) ﴾

أخذنا عهد آدم على ألا يأكل من الشجرة المحرمة، ولكن لم يكن له عزم أمام خداع وإغراء إبليس، رغم أننا أمرنا الملائكة بالسجود فسجدوا إلا إبليس، فحذرنا آدم ﴿ يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴾ وضمنا لك فى الجنة ألا تجوع ولا تعطش، ولا تتعرى، ولا تتعرض لحر الشمس، ولكن الشيطان وسوس إلى آدم وَطَمَّعَهُ إن

هو أكل من الشجرة المحرمة، سينال الخلود فى الجنة وسيحصل على ملك لا يفنى، فخاطب فيه حب البقاء وحب الملك.

***

﴿ فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) ﴾

انخدع آدم وزوجته بوعد إبليس، فأكل الاثنان من الشجرة، فبدت ﴿ سَوْءَاتُهُمَا ﴾ عوراتهما جزاء العصيان، وراح الاثنان يقطفان ورق شجرة الجنة ليستترا ما بدا منهما ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾ وهكذا سقط فى الغواية والإغراء، ثم استفاق وأخذ يستغفر ويتوب هو وحواء ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ ﴾ اختاره وقربه ربه ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ رزقه التوبة الخالصة النصوح، وهداه سواء السبيل، ولكن الله قال لهما: ﴿ اهْبِطَا مِنْهَا ﴾ من الجنة ﴿ جَمِيعًا ﴾ ومعكما إبليس ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ بنو آدم وإبليس، فإذا أرسلت إليكم رسلاً ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ ﴾.

***

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ (١٢٧) ﴾

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي ﴾ من أعرض عن خلقى له، والأمانة التى حملها فى الحياة الدنيا ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ الضنك هو الضيق الشديد فى النفس أو المال أو الأهل؛ فهو ضيق العيش، مهما بدا غناه وجاهه للناظرين ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ يتخبط ولا يعرف ماذا يفعل لعماه عن الحق فى الدنيا وتخبطه ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) ﴾ لماذا أعميتنى وجعلتنى لا أبصر الصراط المستقيم ولا أعرف له طريقًا، وقد كنت فى الدنيا بصيرًا، قال تعالى ﴿ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ﴾ لقد نسيت كلامنا ولم تتعظ بالآيات والمعجزات من حولك، بل لقد جحدت ونسيت كل النعم، فكذلك ﴿ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ لن يذكرك

أحد بالخير يوم القيامة، وهذا هو جزاء الذين أسرفوا على أنفسهم فى الكفر والمعاصى ولم يؤمنوا بآيات ربهم، ينتظرهم فى الآخرة عذاب أشد ﴿ وَأَبْقَى ﴾ وأدوم.

* * *

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (١٢٨) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى (١٢٩) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ (١٣٠) ﴾

قال سيد قطب: [وحين تجول العين والقلب فى مصارع القرون. وحين تطالع العين آثارهم ومساكنهم عن كثب، وحين يتملى الخيال الدور (المنازل) وقد خلت من أهلها الأول؛ ويتصور شخوصهم الذاهبة، وأشباحهم الهاربة، وحركاتهم وسكناتهم، وخواطرهم وأحلامهم، وهمومهم وآمالهم.. حين يتأمل هذا الحشد من الأشباح والصور والانفعالات والمشاعر، ثم يفتح عينه فلا يرى من ذلك كله شيئًا إلا الفراغ والخواء.. عندئذ يستيقظ للهوة التى تفغر فاها لتبتلع الحاضر كما ابتلعت الغابر. وعندئذ يدرك يد القدرة التى أخذت القرون الأولى وهى قادرة على أن تأخذ ما يليها. وعندئذ يعى معنى الإنذار، والعبرة أمامه معروضة للأنظار. فما لهؤلاء القوم لا يهتدون وفى مصارع القرون ما يهدى أولى الألباب؟: «إن فى ذلك لآيات لأولى النهى»!

ولولا أن الله وعدهم ألا يستأصلهم بعذاب الدنيا، لحكمة عليا، لحل بهم ما حل بالقرون الأولى. ولكنها كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى أمهلهم إليه: «ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزامًا، وأجل مسمى»].

فاصبر يا محمد ومن معك على ما يقولون، وسبحوا بحمد ربكم ليلاً ونهاراً، لعلكم تبلغون درجة الراضين.

* * *

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٣١) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ (١٣٢) ﴾

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ ﴾ الخطاب لرسول الله (ﷺ) والمقصود المسلمون: لا تتمنى ما متعنا به أصنافًا من الكافرين لنختبرهم بهذه النعم، وانظر إلى نعمة الإيمان التى حباك الله بها؛ لأنها خير من الدنيا وما فيها، ويمتد أثرها إلى الآخرة ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ والاصطبار أشد من الصبر، فداوم عليها أنت وأهلك، على ممارسة الصلاة وما تأمر به وما تنهى عنه، ولذكر الله أكبر من ذلك ﴿ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ وحسن العاقبة للمتقين الذين يرثون الأرض.

***

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ (١٣٣) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ (١٣٤) قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ (١٣٥) ﴾

وقالوا هلا أتيتنا يا محمد بآيات تدل على رسالتك، فرد الله عليهم: ألم نبين لهم فى القرآن مصير الذين يسألون الآيات تكبرًا وجحودًا وتعنتًا؟ كذلك يبين الله لهم حجتهم الأخرى: لو أهلكناهم بدون رسول لقالوا: لولا أرسلت إلينا رسولاً! ثم يأمر الله رسوله: قل لهم يا محمد ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴾ كلّ منا منتظر ما يحدث بالآخر، وغدًا ستعلمون من منا صاحب الدين الحق، ومن اهتدى.

***